وانصرف ، فقال النبى ﷺ لصحابته : « أما كان فيكم مَنْ يُجهز عليه ؟ » فقالوا : يا رسول الله لو أومأتَ لنا برأسك ؟ يعنى : أشرْتَ إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغى أن يكون لنبى خائنة الأعين »[1] يعنى : هذا تصرُّف لا يليق بالأنبياء ، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبى السرح فيُؤمن ويَحْسُن إسلامه ، ثم يُولَّى مصر ، ويقود الفتوحات فى إفريقيا ، ويتغلب على الضجة التى أثاروها فى بلاد النوبة ، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

وبعد هذه العجائب التى رأيناها فى مراحل خَلْق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يُذكِّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ولك أنْ تسأل : كيف يُحدِّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن مراحل الخَلْق ، ثم يُحدِّثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟

نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفى الذِّهْن وفى الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فترتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٨٣) ، والنسائى فى سننه (١٠٦/٧) من حديث سعد بن أبى وقاص ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما ندرى يا رسول الله ما فى نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك . قال : « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً..②﴾ [الملك] كأنه سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة حتى تستقبل الحياة وتستقبل قبلها الموت الذي ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ﷺ بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ⑳﴾ [الزمر] البعض يظن أن ميِّت بالتشديد يعني مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالميِّت بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى ميِّتون ، أمّا الذي مات بالفعل فهو ميْت بسكون الياء ، ومنه قول الشاعر[1] :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأحْياء[2]

ومعنى : ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ ⑮﴾ [المؤمنون] يعني : بعد أطوار الخَلْق التي تقدمت من خَلْق الإنسان الأول من الطين إلى أنْ قال سبحانه : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭﴾ [المؤمنون]

والمتأمل في هذه الآية وهي تُحدِّثنا عن الموت الذي لا ينكره أحد ولا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق ـ تبارك وتعالى ـ باداتين من أدوات التوكيد : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ⑮﴾ [المؤمنون] فأكّدها بإنّ وباللام ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر ، فيأتي التأكيد على قَدْر ما يواجهك من إنكار ، أما خالي الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

---

(١) هو : عدي بن الرعلاء الغساني . شاعر جاهلي ، اشتهر بنسبته إلى أمه ، وضاع اسم أبيه . [الأعلام للزركلي ٤/٢٢٠] .

(٢) ذكره ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : موت .

تقول مثلاً لخالى الذهن الذى لا يشك فى كلامك : يجتهد محمد ، فإنْ شك تؤكد له بالجملة الاسمية التى تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فتقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسْب حال مَنْ تخاطبه .

إذن : أكّد الكلام عن الموت الذى لا يشكّ فيه أحد ، فقال : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ⑮﴾ [المؤمنون] ومع ذلك لما تكلَّم عن البعث وهو محلّ الشك والإنكار قال سبحانه :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ⑯﴾

ولم يقُلْ : لتبعثون كما قال ﴿لَمَيِّتُونَ ⑮﴾ [المؤمنون] فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار ؟

قالوا : نعم ؛ لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذى يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذِّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوَّره فى حقه .

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أنْ ينكرها ؛ لذلك جاءت دون توكيد : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ⑯﴾ [المؤمنون] فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها ؛ لذلك سأطلقها إطلاقاً دون مبالغة فى التوكيد ، أمّا مَنْ يتشكك فيه أو ينكره ، فهذا نؤكد له الكلام ، فانظر إلى بصر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعقليات خَلْقه وبنفوسهم وملَكَاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ١٧ ﴾

نلحظ أن للعدد سبعة مواقف في هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها ، ففي استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ .. ٢ ﴾ [المؤمنون]

وفي مراحل خَلْق الإنسان نجده مرَّ بسبعة أطوار : سلالة من طين ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر .

وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ .. ١٧ ﴾ [المؤمنون]

وفي موضع آخر قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ١٢ ﴾ [الطلاق]

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمغيَّا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسماوات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أي : مطروقة للملائكة ، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطَّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها . وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شيء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكَّ فوقنا ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ

الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السماء من فوقكم ، وسوف نُمسكها بأيدينا ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ..(٤١)﴾ [فاطر]

ثم يعطينا الحق - تبارك وتعالى - الدليل الحسيّ على هذه الآية ، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عَمَد ، ومثال ذلك الطير يُمسكه الله في السماء : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ..(١٩)﴾ [الملك]

تعلم أن الطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسباح الذي يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائر جناحيه ومع ذلك يظل مُعلّقاً في السماء لا يسقط فمَنْ يُمسكه في هذه الحالة ؟ هذه صورة تشاهدونها لا يشكّ فيها أحد ، فإذا قلت لكم إني أمسك السماء أن تقع على الأرض فصدّقوا وآمنوا ، واستدلوا على الغيب بالمشاهد .

وكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾ [المؤمنون] يقول : اطمئنوا إلى السماء من فوقكم ، فقد جعلتُ لها التأمينات اللازمة التي تُؤمِّن معيشتكم تحت سقفها ، اطمئنوا لأنها بأيدينا وفي رعايتنا .

لكن ، ما المراد بقوله ﴿عَنِ الْخَلْقِ..(١٧)﴾ [المؤمنون] أهو الإنسان أم خَلْق السماء ؟ المراد : ما كُنَّا غافلين عن خَلْق السماء ، فبنيناها على ترتيبات ونظم تحميكم وتضمن سلامتكم .

والغفلة : تَرْك شيء لأنه غاب عن البال ، وهذه مسألة لا تكون أبداً في حق الله - عز وجل - لأنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى عن الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فهل الماء مَقرُّه السماء ؟ لا ، الماء مقرُّه الأرض ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

لما استدعى الخالق ـ عز وجل ـ الإنسان إلى هذا الوجود جعل له في الأرض مُقوِّمات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبرَ له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألاَّ يُملّكه لأحد ؛ لأنه مُقوِّم الحياة الأول ، فالغلاف الجوي والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها داخل تحت قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق ـ عز وجل ـ وقدرته أنْ جعل الماء على الأرض مالحاً ؛ لأن الملح أساس في صلاح الأشياء التي يطرأ عليها الفساد ، فالماء العذب عُرضة للتغيُّر والعطن ، وبالملح نصلح ما نخشى تغيُّره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في دباغة الجلود .. الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدينِ يا مِلْحَ البَلَدِ   مَنْ يُصلح الملحَ إذَا المِلْحُ فَسَد

إذن : أصل الماء فى الأرض ، لكن ينزل من السماء بعد عملية البَخْر التى تُصفيه فينزل عَذْباً صالحاً للشرب وللرى ، وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة حتى تتسع رقعة البَخْر ، ويتكون المطر الذى يكفى حاجة أهل الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿بِقَدَرٍ (١٨)﴾ [المؤمنون] يعنى : بحساب وعلى قَدْر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة واحدة لأصبح طوفاناً مُدمّراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مأرب . وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ..(١٨)﴾ [المؤمنون] لأننا نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقى يتسرب فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ(٢١)﴾ [الزمر] ومن عجيب قدرة الله فى المياه الجوفية أنها تسير فى مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط الماء العَذْب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون فى مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العَذْب بجوار المالح ، بل وفى وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير فى شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعى من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعفنا إذا نَضَبَ الماء العَذْب الموجود على السطح ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ..(١٨)﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جَفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بقدرته على سَلْب هذه النعمة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون] يعني : سيروا في هذه النعمة سَيْراً لا يُعرِّضها للزوال ، وقال في موضع آخر : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

وحين تَعُدّ نِعَم الله التي امتنَّ علينا بها بداية من نعمة الماء : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ (١٨)﴾ [المؤمنون] تجدها أيضاً سبعة . ويبدو أن لهذا العدد أسراراً في هذه السورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خَلْق الإنسان سبعاً ، ومن السماء والأرض سبعة ، وهنا يذكر من نعمه علينا سبعة ؛ لذلك كان للعلماء وقفات عند هذا العدد بالذات .

وأذكر ونحن في المملكة السعودية وكنت أستاذاً في كلية الشريعة ومعي بعض الأساتذة ورئيس بعثتنا الشيخ زكي غيث - رحمه الله وغفر الله له - ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر ، وكان دائماً ما يجلس معنا شيخ علماء المملكة في هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجمعنا كل ليلة الفندق الذي نقيم فيه ، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم .

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذا العدد في القرآن الكريم ، وكان يقرأ في تفسير القرطبي فوجد فيه : قال عمر بن الخطاب لابن عباس : يا ابنَ عباس أتعرف متى ليلة القدر ؟ فقال ابن عباس : أغلب الظن أنها ليلة السابع والعشرين ، فلما سمعنا هذا الكلام قلنا : هذه سبعة ، وهذه سبع وعشرون ، فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو علي - أطال الله عمره - أن نذهب لنصلي في الحرم بدل أن نصلي في الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، وقد كان كلما حزبه أمر يقوم

إلى الصلاة ، وقلنا : ربما يفتح الله علينا في هذه المسألة .

وبعد أن صلينا جلسنا نناقش هذه المسألة ، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مهتم بنفسه ، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقُل رسول الله ﷺ : « التمسوها في العشر الأواخر من رمضان »[1] ؟ إذن : فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا في العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجده ، كأن وحدة الزمن التي توجد بها ليلة القدر هي هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

أطال الله في عمر مَنْ بقي من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) ﴾

الجنة : المكان المليء بالأشجار العالية والمزروعات التي تستر مَنْ يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج في متطلبات حياته إلى غيرها ، فهي من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها . واختار هذه الأنواع ﴿ نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ (١٩) ﴾ [المؤمنون] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿ فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ (١٩) ﴾ [المؤمنون] لأنه لم يحصر جميع الأنواع .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٢١) من حديث ابن عباس ، وأخرجه مسلم في صحيحه (١١٦٦) كتاب الصيام عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ « أريت ليلة القدر ، ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها فالتمسوها في العشر الغوابر » .

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حسن ؛ لأن الله بارك فيها ، والطور كلَّم الله عليه موسى ، فهو مكان مبارك ، كما بارك الله أرض بيت المقدس فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون] الدهن هو الدَّسَم ، والمراد هنا شجرة الزيتون التى يستخرجون منها الزيت المعروف ﴿ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشهَى الأكلات وألذها عند مَنْ يزرعون الزيتون فى سيناء وفى بلاد الشام ، وقد ذُقْنا هذه الأكْلة الشهيرة فى لبنان ، عندما ذهبنا إليها فى موسم حصاد الزيتون .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

الأنعام : يُراد بها الإبل والبقر ، وألحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكَر لأنه لم يكُنْ موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشمل الضأن والماعز ، وفى سورة الأنعام يقول تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ.. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقال فيها : أنعام ونَعَم (بفتح النون والعين) .

والعبرة : شىء تعتبرون به وتستدلُّون به على قدرة الله وبديع صُنْعه فى خَلْق الأنعام .

لكنْ ، ما العبرة فى خَلْق هذه الأنعام ؟ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلَّم عن خَلْق الإنسان ، وأنه تعالى خلقه من صفوة وخلاصة وسلالة من الطين ومن النطفة ، وهكذا فى جميع أطوار خَلْقه . وفى الأنعام ترى شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالأنعام تأكل من هنا وهناك وتجمع شتى الأنواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج الفَرْث ، وهو مُنتن لا تطيق رائحته ويتكون دم الحيوان ، ومن بين الفَرْث والدم يُصفِّى لك الخالق ـ عز وجل ـ لبناً خالصاً ، وهذه سلالة أيضاً وتصفية .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ [1] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾ [النحل]

ونلحظ أن الآية التى معنا تقول : ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا (٢١) ﴾ [المؤمنون] وفى آية النحل : ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦) ﴾ [النحل] ذلك لأننا نأخذ اللبن من إناث الأنعام ليس من كل الأنعام ، فالمعنى ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا (٢١) ﴾ [المؤمنون] أى : الإناث منها و ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦) ﴾ [النحل] أى : بطون البعض ؛ ولذا عاد الضمير مذكراً .

وقوله : ﴿ نُّسْقِيكُم (٢١) ﴾ [المؤمنون] من سقى ، وفى موضع آخر ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ (٢٢) ﴾ [الحجر] من الفعل أسقى . البعض يقول إنهما مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعنى : أعطاه الشراب ، أمَّا أسقى فيعنى جهز له ما يشربه لحين يحب أن يشرب [2] .

---

(١) الفرث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كريه الرائحة . [القاموس القويم ٢ / ٧٤].

(٢) قال الفراء : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم أسقيت ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا سقاه ولم يقولوا أسقاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ [الإنسان] ، وربما قالوا لما فى بطون الأنعام ولماء السماء سقى وأسقى . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

لذلك لما تكلّم الحق سبحانه عن شراب الجنة ، قال : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان]

ولما تكلم عن ماء المطر قال سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر] يعنى : جعله فى مستودع لحين الحاجة إليه .

كما قلنا فى (مُرضِع) بالكسر ، و (مُرضَع) بالفتح ، فمرضِع بالكسر للتى ترضع بالفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]

أما مرضَع بالفتح ، فهى الصالحة للرضاعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المؤمنون] نلحظ أن آية النحل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين فَرْث ودم ، أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأنعام ، فكل آية تأخذ جانباً من الموضوع ، وتتناوله من زاوية خاصة ، نوضح ذلك لمن يقولون بالتكرار فى القرآن الكريم ، فالآيات فى الموضوع الواحد ليست تكراراً ، إنما هو تأسيس بلقطات مختلفة ، كل لقطة تؤدى فى مكانها موقعاً من العظة والعبرة ، بحيث إذا جمعت كل هذه المكررات الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشىء .

والمنافع فى الأنعام كثيرة : منها نأخذ الصوف والوبر ، وكانوا يصنعون منه الملابس والفرش والخيام ، قبل أن تُعرف الملابس والمنسوجات الحديثة ، ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمَنْ يلبسون الثياب الخشنة ، وهم الآن يصنعون من الصوف ملابس ناعمة كالحرير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام أيضاً الجلود والعظام وغيرها ، يقول تعالى :
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾ [النحل]

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١﴾ [المؤمنون] أى : لحماً ، وذكر اللحم فى آخر هذه المنافع ؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أنْ ذكرنا أن الحيوان الذى أحلّه الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذَبْحه كأنه يقول لك : أسرع واستفد منى قبل أنْ أموت .

وفى لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۝٧﴾ [النحل] إذن : كل آية تحدثت عن الأنعام تعطينا فائدة لتظل مربوطاً بالقرآن كله .

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾

﴿وَعَلَيْهَا ۝٢٢﴾ [المؤمنون] أى : على الدواب تُحملون ، فنركب الدواب ، ونحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق - سبحانه وتعالى - ما تركنا فى البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [المؤمنون] فكما أعددتُ لكم المطايا على اليابسة الضيقة أعددتُ لكم كذلك ما تركبونه فى هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفُلْك فقد ناسب ذلك الحديث عَمَّنْ له صلة بالفُلْك ، وهو نوح عليه السلام :

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى سافر . [القاموس القويم ١/ ٤١٥] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثنا القرآن الكريم عن خَلْق الإنسان وخَلْق الحيوان، وحدثنا عن بعض نعمه التى امتنَّ بها علينا تدرج بنا إلى صناعة الفُلْك؛ لأنه قد يسأل سائل: وكيف تكون هذه الفُلْك أى: تخلق كالإنسان والحيوان بالتوالد، أم تنبت كالزرع؟ فأوضح الخالق سبحانه أنها وُجدت بالوحي فى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة، لم يترك فيها الحق سبحانه نبيَّه يفعل ما يشاء، إنما تابعه ولاحظه ووجَّهه إلى كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها، كما قال سبحانه: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر] وهى الحبال، كانوا يربطون بها ألواح الخشب، ويضمون بعضها إلى بعض، أو المسامير تُشَدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض.

لكن، مهما أُحكمَتْ ألواح الخشب بعضها إلى بعض، فلا بُدَّ أن يظل بينها مسامّ يتسرب منها الماء، فكيف نتفادى ذلك فى صناعة الفُلْك خاصة فى مراحلها البدائية؟ يقولون: لا بُدَّ لصانع الفُلْك أنْ يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشبُ الماءَ يتشرب منه، فيزيد حجمه فيسدّ هذه المسام تماماً، ولا يتسرب منها الماء.

ومن عجائب القرآن ومعجزاته فى مسألة الفُلْك قوله تعالى:

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى: كالجبال العالية. وهذه الفُلْك لم تكُنْ موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذى امتنّ علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور فى صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفُلْك ، فطبيعى ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام ؛ لأنه أول من اهتدى بالوحى إليه إلى صناعة الفُلْك ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..ⓣ ﴾ [المؤمنون]

لما تكلّم الحق سبحانه عما فى الأنعام من نِعَم وفوائد ، لكنها تؤول كلها - بل والدنيا معها - إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذى لا يزول فذكر منهج الله الذى أُرسِل به نوح ، وهو واحد من أولى العَزْم من الرسل .

والإرسال : هو أنْ يكلِّف مُرسِل مُرْسَلاً إلى مُرْسَل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرِّسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهمونه ، وكيف لا وهم عباده وخَلْقه ، وقد جعلهم خلفاء له فى الأرض ؟

والذى خلق خَلْقاً ، أو صنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدى مهمتها فى الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثّلنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - بصانع الثلاجة أو التليفزيون حين يضع معه كتالوجاً يحوى تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذى خلق الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض أَوْلَى بهذا القانون وأَوْلَى بصيانة خَلْقه ؛ لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » يعنى : ما دام كل شىء

من أجلك يعمل لك ويُؤدِّى مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدى مهمتك التى خلقتُك من أجلها .

لذلك وضع لك ربُّك قانون صيانتك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤديه فهو سرُّ الجمال فى الكون ، وسرُّ السعادة والتوافق فى حركة الحياة ، وعليك أن تجتنب النهى فلا تقربه ؛ لأنه سيؤدى إلى قُبْح ، وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التى سكت عنها فأنت حُرٌّ فيها تفعل أو لا تفعل ؛ لأن ذلك لا يأتى بقبيح فى المجتمع ، وهذه المسائل تُسمَّى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مُقوِّمات استبقاء الحياة من طعام وشراب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شمل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين فى مسائل المادة نجد الصانع يحدد مقومات صنعته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيَّرت فى هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدى مهمتها .

كذلك - ولله المثل الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تَحدْ عنه ، وإلا فسد حالك وعجزتَ عن أداء مهمتك فى الحياة . فإن أردنا أن تستقيم لنا الخلافة التى خلقنا الله لها وهى خلافة مُصلحة لا مُفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذى وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إنْ رأيت في المجتمع عورة ظاهرة في أي ناحية من نواحي الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوْعى والمحاويج فاعلم أن في الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السَّعْي فى مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستأثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كان الحق سبحانه قد حرَّم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها ؟ ويُمثِّلون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمر . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شىء خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها فى الحياة ، وليس بالضرورة أنْ تُؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمر فلم تُخلق خمراً ، إنما هى ثمرة العنب الحلوة التى تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخَّل فى هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..(٢٣)﴾ [المؤمنون] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات] فالنساء فى مقابل القوم أى : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر[1] :

وَمَا أدْرِى وسَوْفَ أخَالُ أدْرِى   أقَوْمٌ آلُ حِصنٍ[2] أمْ نِساءُ

لكنْ هل أُرسل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أُرسل نوح إلى الجميع ، لكن ذُكر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويُبلِّغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال منُوط بهم القيام بمهام الأمور فى عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة فى ﴿ قَوْمِهِ.. (٢٣) ﴾ [المؤمنون] بمعنى اللام يعنى : قوم له ؛ لأن الإضافة تأتى بمعنى من مثل : أردب قمح يعنى من قمح ، وبمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى فى الليل ، وبمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له ؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قال لهم لا يتهمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخَلْق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] ففى هذا إيناس وإلْفٌ للقوم على خلاف ما إنْ كان الرسول ملَكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه .

لذلك ، فالنبى ﷺ كان يُسمَّى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومُقوِّمات حياته تُشجِّع على

---

(١) هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته . توفى عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٥٢] .

(٢) يريد : حِصْن بن حذيفة الفزارى . قاله ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : حصن] .

أنْ يُصدِّقوه فيما جاء به ، وكيف يصدقونه فى أمر الدنيا ، ولا يُصدقونه فى البلاغ عن الله ؟

إذن : ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿٢٣﴾﴾[المؤمنون] أننا لم نأتِ لكم برسول من جنس آخر ، ولا من قبيلة أخرى ، بل منكم ، وتعرفون ماضيه وتاريخه ، فتأنسون بما يجيء به ، ولا تقفون منه موقف العداء .

أو يكون المعنى : إلى قوم منه ؛ لأنهم لا يكونون قوماً قوّامين على شئون إصلاح الحياة ، إلا إذا استمعوا منهجه ، فهم منه ؛ لأنهم سيأخذون منه منهج الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴿٢٣﴾﴾[المؤمنون] (يا قوم) استمالة وتحنين لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴿٢٣﴾﴾[المؤمنون] والعبادة طاعة عابد لأمر معبود ، والعبادة تقتضى تكليفاً بأمر ونهى . فالألوهية تكليف وعبادة ، أما الربوبية فعطاء وتربية ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾[هود] أى : ربكم جميعاً : ربُّ المؤمن ، وربُّ الكافر ، ربُّ الطائع ، ورب العاصى .

وكما قلنا : الشمس والقمر والأرض والمطر .. الخ كلها تخدم الجميع ، لا فرْقَ بين مؤمن وكافر ؛ لأن ذلك عطاء الربوبية ، وإنْ سألت الكافر الجاحد : من خلقك ؟ من رزقك ؟ فلن يملك إلا أن يقول : الله ، إذن : فليخْزَ هؤلاء على أعراضهم ، وليعلموا أنه تعالى وحده المستحق للطاعةِ وللعبادة . فمقتضيات الربوبية والإيمان بها تقتضى أن نؤمن بالألوهية .

كما أن الطفل الصغير ينشأ بين أبيه وأمه ويشبّ ، فلا يجد غيرهما يخدمه ويقضى حاجته ويُوفِّر متطلباته ، بل ويزيل عنه الأذى

ويسهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة ، ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفرا لك الحياة الكريمة ، فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحُلُم ومبلغ الرجال نجده يعقُّهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذه من أحضانهما أصدقاء السوء ، ويُزيِّنون له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمثل هذا العاق : اخْزَ على عِرْضك واسْتَحِ ، فليس هكذا يكون رد الجميل ، وأين كان هؤلاء الأصدقاء يوم أنْ كنتَ صغيراً تحتاج إلى من يعولك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على راحتك ؟ قد كان ينبغي عليك ألاَّ تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - ولله المثل الأعلى - فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تتمرد عليه سبحانه في الألوهية ، فتعصى أمره وتكفر بنعمه ؟ كان من الواجب عليك الوفاء للنعمة .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عز وجل - مأمون عليك في التكليف بالأمر والنهي ، لأنك عبده وصنعته ، وأنك حين تُؤدِّي ما عليك تجاه الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشيء ، إنما تعود منفعتها عليك ، وهكذا إذا ما رددت أمور الطاعة والعبادة والتكاليف لوجدتها تعود في النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية ؛ لأنها تعود عليك أنت بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامر والنواهي على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هي تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو أنصفتَ لوجدتَ الألوهية من الربوبية ، فحين يُحرِّم مثلاً عليك شرب الخمر ويحميك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشيء ؟

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

ويقول: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض، فلماذا تعصونه؟ وهل نقص عصيانكم من مُلْكه شيئاً؟ وهل زاد في مُلْكه شيء بطاعة مَنْ أطاع؟ هل زاد في مُلْك الله بطاعة الطائعين أرض أو سماء، أو شمس أو قمر؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصفات الكمال فيه كل مُقوِّمات حياتكم واستدعاكم إلى كون مُعَدٍّ لاستقبالكم ولمعيشتكم. إذن: فربُّك - عز وجل - لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية.

لذلك يقول في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا في صعيد واحد، وسألني كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر، وذلك أنِّي جواد واجد ماجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردتُه أن أقول له: كن فيكون»[1].

إذن: حين تطيعني فالخير لك؛ لأنك ضمنتَ بهذه الطاعة حياة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) من طريق آخر عن أبي ذر رضي الله عنه، واللفظ للترمذي، وقال: «هذا حديث حسن».

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانـية التى مهما أترفت فيها فهى إلى زوال ، فإما أنْ تـفوت نعيمهـا بالموت ، وإما أنْ يفوتك بـالحاجة والفقر ، أمـا فى الآخرة فالنعيم دائم بَاقٍ لا يفـوتك ولا تفوته ؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت] فكان عطاء الألوهية ربوبية متعدية إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفـيدنى فى شىء ، أو أن معصيتك ستضـرنى بشىء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون] أى : معبود غيره ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون] هذا استفهام يحـمل معنى التهديد والتـوبيخ ، لكن كيف يُوبِّخـهم وهو لم يَزَلْ فى مرحـلة الأمر بعـبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمرهم بتقوى الله .

والتـقوى مـعناها أنْ تجعل بيـنك وبين ربك وقاية تقـيك صفـات جبـروته وقَهْره وتحمـيك من أسباب بَطْشـه وانتقامه ، فلست مطيـقاً لهذه الصفات . والوقاية التى تجـعلها بينك وبين هذه الصفات هى أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهى .

ومن عجيب تركيبات التقوى فى القرآن الكريم أنْ يقول سبحانه : ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البـقرة] ويقول : ﴿فَاتَّقُـوا النَّارَ..﴿٢٤﴾﴾ [البـقرة] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتـقى الله من متعلقـات صفات قهره وغـضبه ومنها النار ، فـحين تتقى الله بالمنهج فقـد اتقيْتَ النار أيضاً .